رب صدفة خير من ألف ميعاد

تبادلا النظرات في جوٍّ مختلط بنسمات الغرام داخل عربة الدرجة الأولى من القطار المتجّه من القاهرة إلى الإسكندرية.

غرفة القطار الصغيرة، التي جمعتهما، بكلّ جانب منها باب ونافذة، وبها مقاعد يناظر كلّ منها الآخر.

الفتى طبيب جراح في ريعان الشباب، وسيم، حسن المظهر.

الفتاة، في العقد الثاني، آية في الجمال، عيناها واسعتان مكحلتان بأهداب طويلة، وشعرها ناعم يتساقط على كتفيها، يتطاير يمينًا ويسارًا مستجيبًا لنسمات الهواء.

الوقت متسع إذا ما تحرك القطار، وجدير بأن يُنشئ علاقة بين اثنين تجمعهما غرفة واحدة.

ولمّا كانت نظراتهما المتبادلة تلاحق بعضها تحوّلت دقات القلب المنتظمة لكلّ منهما إلى دقات سريعة تعلن عن رغبة شديدة في إقامة صداقة، أو بداية تعارف، أو علاقة حبّ كما يسمح المكان، ابتسم صفوت، وضحكت الفتاة في صمت، كأنّها تبارك هذا اللقاء رهين الصدفة، فرب صدفة خير من ألف ميعاد.

تحرّك القطار، فتحرّكت الخواطر في ذهن صفوت باحثة عن بداية حكاية أو طرف حديث يجذب الفتاة إليه، ليحمي ما صنعته هذه الغرفة المتواضعة من نظرات حالمة، وشغف قلبه سعيًا وراء معرفتها، وغمرته سعادة جارفة من خلال نظرتها المتلاحقة بين لحظة وأخرى، فشعر بحنين شديد للتعرف عليها حالمًا بحبّ هذه الجميلة الحسناء.

كذّب ما رأته عيناه، فهو لم يصدق يومًا أن يجد إعجابًا من فتاة جميلة مثلها، حرّكت قلبه، كانت تجلس أمامه في صحبة جدتها العجوز تعبّر عن طباع فاضلة وأخلاق سامية، شعر بسعادة بالغة

وهو يتلمّس أطرافه ويتأكد بنفسه أنّه بعيد عن غفوات النوم وأنّ ما يراه حقيقة، فحمد ربّه وشكر الصدفة، التي جمعته بهذه الحسناء على غير موعد، ففي تلك الغرفة الصغيرة المتواضعة كانت النظرة وعلت البسمة وتمّ اللقاء.

وبينما القطار يسابق الريح، وينهب طريقه نهبًا، تحوّلت شمس يوليو اللاذعة لتطل من النافذة على رأس الفتاة، لكنّها على الرغم من شدة حرارة الشمس لم تفارق مقعدها، حتّى لا تصدم الشاب وتنقطع الخيوط الشفافة المسترسلة بينهما، وهكذا وجد صفوت فرصته ليتحدّث إليها، فهمّ واقفًا من مقعده ليخلي لها مقعدًا بجانبه بعيدًا عن حرارة الشمس، قائلًا:

- ألديك مانع من تبديل مقعدك؛ لتتجنبي صهد الشمس؟

قالت في دلال، وعلى شفتيها ابتسامة رضى:

- هناك أمر يجعلني أتحمّل حرارة الشمس.

كان ذلك بداية طرف لخيط الحديث معها، أمسك به صفوت حتّى تمكّن من معرفة اسمها وبعض أحوالها، وعرف منها، وهما

يتبادلان الحديث أنّها أتمت دراستها الجامعية، كما عرف من حديثها أنّ والدها فارق الحياة.

ولمّا كان من صفات المرء أن يشيد بعراقته، ويعتزّ بنفسه أخذت تحدّثه عن ماضيها، وحاضرها في تواضع، واعتزاز، وعندئذ قرّ في نفسه إعجاب شديد بها، وبينما هما في طلاوة الحديث مالت إليها جدتها هامسة في أذنيها، فاضطربت، واعتراها شيء من الحيرة والقلق، وكأنّ هناك عقدة صعب عليها حلّها، وبينما هي في حيرتها، قالت بصوت عال، لتسمع صفوت ما تقول:

- سأنتظر بالقطار بعد وصوله حتّى يحضر محمود.

اعترى صفوت قلق شديد، ودفعه فضوله لمعرفة محمود، الذي ذكرت اسمه، هل هو خطيبها؟ أو أخوها، أو أحد أصدقائها، وبادر بسؤاله من يكون محمود؟ قالت:

- أخي الأكبر، فقال في اهتمام:
- أريد مقابلته يا سهام.

فعلا وجهها مسحه من الفرح، وهي تبتسم ابتسامة عريضة فضحت ما يعتمل بداخلها من سعادة وأمل، وأخذت تهندم ملابسها تارة، وترتب شعرها تارة أخرى في رشاقة ودلال.

إن ما انفعلت به سهام جعلها تختلس منه نظرات حالمة بالحب والأمل لتحقيق حلم راودها منذ زمن بعيد، وهكذا وجدته يتعلق بها، ويبادلها شعورًا فياضًا بالعاطفة والغرام، وهنا عرفت سهام أنّها ملكت عليه قلبه ومشاعره، وسرحت بخيالها قريبًا وبعيدًا لتحقيق أمنية طالما راودتها لبناء عش سعيد.

بعد فترة سكون، تحرّكت سعاد من مقعدها لتحرّك في صفوت آلامًا ومواجع، وبقدر ما بدا عليها من رشاقة وجمال قدر ما أحاطها من كآبة وحزن، إذ سحبت من تحت مقعدها جهازًا صغيرًا ضغطت على زر به فانتصب عكازًا تتكئ عليه لتغير مكانها، ولتعرفه ما أخفته عنه منذ اللحظات السابقة، فربّما يعدل عن مقابلة أخيها محمود، كغيره ممّن أعجبوا بها من قبل في مثل هذه الأحوال.

مرّت أسعد لحظات حياته وهو يسبح بخياله في مشروعه الكبير لتكوين أسرة بزواجه من هذه الجميلة الحسناء، لكن ما فاجأته به آلمه في أعماق نفسه، وحزن حزنًا شديدًا على هبة السماء، التي فقدها في لحظات، ولم يهنأ بها.

رأت سهام الحزن في عينيه، فعرفت أنّه عدل عما كان بفكره نحوها، حينما سرح بخياله طويلًا يدقّق النظرة إليها تارة، وأخرى إلى عكازها في غيظ، حتّى كاد شرر عينيه يشعل ذلك العكاز، وفجأة وجدته يندفع نحوها بخطوة قربته منها، وهو يقدّم لها منديلًا لتمسح دمعتيْن سالتا على خديها، ويخبرها أنّه مصرٌّ على مقابلة محمود.